مفهوم التجديد و اتجاهاته في ضوء تحديث الدرس البلاغي

د. بلقاسم دكدوك
جامعة أم البواقي
lettresarabe@yahoo.fr

في مفهوم التجديد:

إن كلمة (تجديد) بوزنها اللغوي (تفعيل) تعني في لغة العرب: حالة التواصل والاستمرارية وبذل الجهد والطاقة، وهي وإن لم ترد في القرآن بهيئتها إلا أنه لا يخلو من التعبير عنه بمعان أخر تسهم في تفسيرها، من نحو (الإصلاح) الوارد ذكره في قول الله تعالى على لسان هود عليه السلام: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت..هود/88)، و(التغيير) على ما في قوله: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما في بأنفسهم... الرعد/11).. كما ورد ذكرها صراحة في قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ :(إن الله يبعث على رأس كل مائة، من يجدد لهذه الأمة دينها).[1]

ولما كانت قضية التجديد من القضايا الرئيسية التي تطرح على كافة المستويات والمعارف النظرية منها والنظامية والحركية، فقد اعتبرت من الأمور القيمة الأساسية بحيث إن أي تيار فكري يمكن له أن يعد نفسه ممارسا للتجديد.. ومن هنا شكل مصطلح التجديد في ذاته بريقا أدى إلى انخراط كافة التيارات الفكرية فيه، واعتبارها نفسها الممثل له، ومن ثم فقد أفرد كل منها مبحثا من مباحثها أو أكثر لهذا الغرض إن لم يكن بهذا المسمي فتحت مسميات قريبة مثل: (التقدم) أو (التطور) أو (الحداثة) أو (المراحل) أو(التاريخ) أو (التعبير).[2]

وأهم ما تشير إليه نصوص الوحي السابق ذكرها هو ذلك التواصل الذاتي الذي يأتي بعودة الأمة إلى الأصول والتفاعل في حركة الحياة مع مبادئها ومقصدها فكرا ونظما وحركة، وبذا يعد مفهوم التجديد أحد المفاهيم الشرعية التي لا يجوز التفريط فيها لا اسما ول لا معنى ولا دلالة.[3] وبناء على ما مر بنا فقد حمل البعض مفهوم التجديد الوارد في الحديث على معنى: إحياء الدين والاجتهاد المذهبي وإزالة البدعة وإقامة السنة والعمل بمقتضاها، فهو بحسب عباراتهم يعني: إحياء ما ندرس من أحكام الشريعة وما ذهب من معالم

السنن وخفي من العلوم الظاهرة والباطنة، إحياؤها وتخليصها مما أعاق فعليتها وأثرها[4].. لكن الإشكالية ليست في هذا الذي هو محل إجماع، وإنما تكمن في استيعاب الواقع المعيش، وفي مواجهة التحديات التي تستحدث، ومصطلح (الاجتهاد في مستجدات العصر) الذي آثروا استخدامه على مصطلح (التجديد) وقصروه على المستحدثات الفقهية، قد لا يستوعب الواقع بتعقيداته ومستجداته.

اتجاهات التجديد في الفكر العربي الإسلامي:

لقد أدى ما أل إليه (الاتجاه السلفي المعاصر) إلى ظهور (اتجاه التوفيق) الذي ينظر أربابه إلى التجديد باعتباره عملية توفيقية بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية، وذلك بهدف إيجاد نوع من المصالحة فيما بينهما... وقد حدد هذا الاتجاه التحديات التي تواجه الفكر الإسلامي في: وجود فجوة كبيرة بين وعي المسلمين المعاصر وبين الواقع المشاهد والمتمثل في هيمنة الغرب، وبالتالي فإن الحل المفترض لأية إشكالية يكمن في اعتماد مبدأ التجديد من أجل كشف الخلل القائم في الذهنية المسلمة وبعث قدراتها من جديد في الإبداع والتحضر والتقدم مع الاستفادة من علوم الغرب وتحديه بالسيطرة على الواقع الذي أفرزه.[5]

ويذهب بعض أصحاب هذا الاتجاه إلى أن مصطلح (التجديد) لم يعد يعبر عن الإحياء بل صار مرادفا للتطور والتقدم الذي يجمع بين الثوابت الثقافية والمتغيرات الحضارية بحيث أصبح الأقرب إلى التجديد هو من كان يجمع بين الثقافة القديمة والحديثة، وينادي بالإصلاح الشامل لأمور الدين والدنيا بحيث لا يصبح هناك-حسب تقرير عبد المتعال الصعيدي- حرج على المسلمين المحدثين من تطبيق النافع لهم من النظم والثقافات الغربية و يتركوا العتيقة منها التي لا تتواءم مع طبيعة العصر، لأن الظروف والأحوال تتغير... فمن يقف على دلالة النصوص، يجمد عليها ويجني على الشريعة بتفويت مقاصدها وأغراضها ويجعلها و كأنها غير ملائمة لما يجد من الظروف والأحوال، وعليه فيجب الاجتهاد في تأويل النصوص لإثبات أن الشرع ليس عائقا لتطور الأمم ولا قامعا للحريات ولا سجنا للعقول[6].. والحق أن التوفيق ليس عيبا في حد ذاته، لكن ما يحدث هو أن الاتجاه نحو التغريب عادة ما يكون تمهيدا لإقصاء المفهوم الأصيل للمعارف اللغوية بكل جوانبها ومصطلحاتها وخصوصياتها، والسير

قدما صوب حداثة الغرب والذوبان في ثقافته، والجمع بين أخلاط تستعصي بطبيعتها على التجانس على نحو يجعلها أقرب إلى التلفيق منها إلى التوفيق... وما نحن بصدد الحديث عنه والإفاضة فيه خير شاهد على هذا.[7]

ومن هذا المنطلق ظهر اتجاه ثالث يدعو إلى (أصالة المعرفة)، ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الإسلام باعتباره دينا، قد تنزل ليكون منهج حياة وهو دائما وأبدا يناشد معتنقيه والملتزمين به أن يترجموا مقولاته الأساسية إلى واقع حي معاش، سواء على مستوى التنظير والتأصيل الفكري والعلمي أو على مستوى النظم والتأسيس والوسائل أو على مستوى الحركة والممارسة الفعلية.[8]

كما ذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الإسلام بعلومه المتصلة به يستنكف أن يعالج بغير أبجدياته، فضلا عن أن التصور الإسلامي بلغته المصطفاة لا يعرف الجمع ما بين رؤية مهتدية بالإيمان وأخرى وضعية تستند إلى أساس مختلف ومنتزع من العلمانية وربما الإلحاد ليجعلهما في إطار واحد، ولذا ينادي هذا الاتجاه بالبدء بالنقد الجذري للحضارة الغربية الحديثة ومحاولة استكشاف معالمهما والسعي للامساك بمفاتيحها مع الاحتفاظ بمسافة بينه وبينها، ثم يحاول تجريد نموذج معرفي منها يتمكن عن طريقه من توليد إجابات على الاستشكالات التي تثيرها الحداثة الغربية وعلى أية إشكاليات أخرى جديدة، يعني انه باختصار يفتح ــ انطلاقا من أرضية إسلامية ــ باب الاجتهاد في كل ما تمس له الحياة ويستجد في دنيا الناس سواء فيما يتعلق بالتعامل مع المنظومة الغربية أو ما تعلق بفهم واستحضار الموروث الثقافي الإسلامي[9]، وأضننا بذلك نستطيع أن نجعل ما تم على يد الإصلاحيين المعاصرين ــ ممن كان على شاكلة أئمتنا محمد عبده ومصطفى المراغي ورشيد رضا ومحمد أبي موسى وإبراهيم الخولي ونظائرهم ــ من تحديث لبعض العلوم بإرجاعها إلى ماضيها مع تسهيل تناولها، من هذا القبيل.

ولعله قد بدا واضحا أن ما أفضنا فيه القول هنا عن مفهوم التجديد واتجاهاته يروم بيان:

1-أن التجديد ضرورة شرعية وسنة من سنن الله الكونية وفطرة فطر الله الكون والكائنات عليها، وأنه لذلك قد شمل سائر مظاهر الحياة ومعارفها وعلومها وميادينها، وطال– بالطبع- ضمن ما طال (ميدان الدراسات

البلاغية) بشتى فنونها، وعليه فليس من الصحة – مع ما ذكر- القول بأن البلاغة العربية تظل جامدة قابعة تراوح مكانها.

2 - وأن صيحات الإصلاحيين بضرورة تجديد الخطاب البلاغي في عصرنا إنما جاء تمشيا مع نوازع الفطرة، ولا يبعد أنها قد جاءت – مع ما سبق ذكره- كرد فعل لهذه الصيحات التي علت، يتهم الخوان الختار منها البلاغة بالجمود والتخلف والرجعية، وينادي الخير الحسن النية منها بأهمية تسهيل هذا التراث البلاغي على نحو يبعث على التشويق لدراسته ويشجع على تعلمه وينشد تربية الملكة للكشف عن أسرار ما بلغ من الكلام وفصح.

3- وأن من التجديد ما هو مقبول وهو هذا الذي يربط القديم بالجديد ويعتمد مبدأ الأصالة والمعاصرة، وما هو مرفوض شكلا وموضوعا وهو ذلك الذي يقطع الصلة والرحم بين هذا وذاك، من نحو تلك الحداثة التي ملئوا الدنيا بها صراخا، وعابها أهل الاختصاص على التحقيق، وحسبنا أن نذكر منهم شوقي ضيف ــ أستاذ جيل الرواد وصاحب موسوعة (تاريخ الأدب العربي) والمؤلفات الشهيرة في اللغة والأدب والتراجم ــ الذي قال في جوابه عن سؤال في تقييمه للواقع الأدبي والثقافي بعد رحيل كثير من العمالقة والنوابغ في الوطن العربي وتدفق موجة (الحداثة) وما صاحبها من المذاهب الوافدة:"أشم من رائحة السؤال مدى الخوف والقلق الذي أصابنا من جراء الغزو الفكري والثقافي الغربي في العقود الأخيرة، ولكي اطمئن هذا الجيل والأجيال المقبلة بأنه لا خوف على الأدب العربي إطلاقا ...

أما (عن الحداثة) ــ كما أطلقوا عليها ــ فلا هي حداثة ولا دماثة، بل هي ردة فكرية وثقافية، والحمد لله أن هذه الدعوى الغربية الشاذة أوشكت أن تتلاشى وتذهب ريحها(فإما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض..الرعد/18)، فشتان بين الأدب الأصيل والأدب الزائف، وشتان بين الأخلاق والدعارة".. وأردف يقول:"إن المشاعر العربيةــ دائما ــ ترفض الفن الرخيص الزائف، كما ترفض الانحرافات النفسية والفكرية، إن أدبنا العربي الإسلامي عالم فسيح رحب يتغنى بالتضحيات والبطولات، ويدعو إلى الفضائل، وينهى عن الرذائل، ويجول في أنحاء الشرق والغرب، ويبرز التجارب المحلية والعالمية، ويرتبط بقضايا الإنسان عامة وقضايا المسلمين في شتى أنحاء المعمورة خاصة "[10]أ.هـ

4- وان المناداة بالتجديد في ميدان العلوم البلاغية يشوبها الكثير من المخاطر والمحاذير التي تستوجب أن نتحسس لأجلها مواطئ أقدامنا وأن نتنبه لما يريده عدونا..وما ذلك إلا لارتباطها أولا ارتباطا أساسيا ببلاغة القرآن، ولاستعصاء هذه العلوم عن الانضواء تحت الحداثة أو أي من مسميات التغيير التي تبغي التوفيق ما بين الرؤى العربية والرؤى الغربية، ولما تتميز به ــ ثالثا ــ من دقة وخصوصيات لا يمكن معها أن تنصاع لنوازع التجديد الغربية على نحو ما تأثرت الدراسات الأدبية والنقدية على سبيل المثال.

وإنما يؤكد وجهة النظر هذه أن الذين أجهدوا أنفسهم في معاداة العربية كانوا عاجزين عن فهم البيان العربي وكانوا يخطئون في فهم البلاغة العربية، ولقد أفصحت بنت الشاطئ عن شيء من هذا عندما قالت:" إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها هم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها، ويحول تركيبهم الاجتماعي وتكوينهم الحضاري دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة، وهدا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة سجلوها ظلما على بعض مفاهيم الإسلام، فادعى (فيليب فونداس) أن الأموال عند السلم من أصل شيطاني نجس استنادا إلى الآية الكريمة (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها..التوبة/103، وادعى آخر أن الحكم الديني، كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم، ويستنبط هذا الاكتشاف من فهمه لمعنى الراعي والرعية ..إلخ"[11].

ويجرنا ذلك كله إلى الحديث عن جهود البلاغيين الحثيثة في تجديد معالم البلاغة العربية قديما وحديثا، وفي بيان ما لها وما عليها، وفي اتفاق دعواتهم التجديدية على المناداة بسلاسة الأسلوب في تناولها والإلمام بمسائلها والإحاطة بدروبها وفصولها ومباحثها .

ملامح التجديد في الموروث البلاغي :

يمكن لنا القول: إن البلاغة العربية تعد بحق معلما بارزا من معالم تراثنا الحضاري والثقافي الذي ارتبط ارتباطا محكما طوال تاريخه والى يوم الناس هذا بالقرآن وعلومه وبالسنة وبيانها، وأنها مرت طوال عمرها التليد وحتى القرن الماضي بأربع مراحل تمثل كل مرحلة منها طورا جديدا وحدثا تاريخيا لهذا الفن الراقي والبالغ الأهمية في معرفة جيد الكلام من رديئة وفي الوقوف على أسرار

البليغ من فنون القول وخصائصه، وصولا إلى الوقوف على شيء من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز في كتاب ربنا المجيد، ومن ثم إلى صدق المبلغ عن الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان به.

ويمثل الإمام عبد القاهر[12] ت 471 ـ بما دبجه في كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) ـ المرحلة الأولى من هذه المراحل التجديدية الأربع خير تمثيل، إذ" يحتل الإمام الجرجاني في البحث البلاغي مركزا لم يصل إليه أحد ممن قبله ولم يزاحمه فيه أحد ممن بعده، سواء ـ كما يقول المطعني ـ من حيث عمق الدراسة أو من حيث ما فجر من كنوزها وفتق من أكمامها وجلى من مسائلها وأضاف من فنونها، فهو واحد فذ في هذا المجال، وحسبه أنه واضح صرحي علمي (المعاني) و(البيان) وما أشار إليه من فنون (البديع)، ناهجا بالدرس البلاغي منهجا فريدا جمع بين العلم والفن والذوق، فكانت مباحثه البلاغية شهيدا كشهد النحل، تمتص رحيق كل الأزهار ثم تكسبه جنى طيب المذاق فيه شفاء للناس، وإذا كانت البلاغة قبل الإمام عبد القاهر قد اختلطت – أحيانا- بمسائل النقد واللغة أو اختلط بها النقد، فإن مباحث الإمام عبد القهار قد مزجت بين هذه الفنون مزجا حكيما، فكانت (بلاغة)، حتى النحو والصرف اللذين هما الآن فنان مستقلان، فإنهما في مباحث الإمام عبد القهار من الروافد التي أسهمت في تكوين (كوثر) البلاغة بما فيه من صفاء وعذوبة وحياة".[13]

وعبد القاهر – بما سبق ذكره وبرأي الكثيرين – هو أول من ألف في البلاغة" وعلى نهجه سار المؤلفون بعده و نهلوا من معينه واغترفوا من بحره وأتموا البنيان الذي وضع أسسه"[14]، وقد شهد له بهذه الجدة والأسبقية صاحب الطراز الإمام يحي بن حمزة العلوي ت 849 حيث يقول: " وأول من أسس من هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورتب أفانينه: الشيخ العالم النحرير علم المحققين عبد القاهر الجرجاني، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، وهد من سور المشكلات بالتسوير المشيد، وفتح أزهاره من أكمامها وفتق أزراره بعد استغلاقها واستبهامها، فجزاه الله عن الإسلام أفضل الجزاء، وجعل نصيبه من ثوابه وأوفر النصب والإجزاء، وله من المصنفات فيه كتابان، أحدهما: لقبه ب(دلائل الإعجاز) والآخر لقبه بـ (أسرار البلاغة)"[15].

كما مثل أبو يعقوب السكاكي[16] ت626 - بما صنعه بحق الدراسات البلاغية التي ضمنها القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم) – ثاني هذه المراحل

التجديدية في تراث بلاغتنا العربية، إذ يرجع له الفضل في جمع شتاتها وفي تقسيمها إلى علومها الثلاثة: (المعاني) و(البيان) و(البديع)، وذلك بعد أن كانت مجرد مباحث ومسائل متناثرة في جهود من سبقه " فميز بعضها عن بعض تمييزا تاما وجعل لكل مبحث منها علما خاصا... وقد جرى على ترتيبه لهذه المباحث من أتى بعده من المتأخرين، فكان عمدتهم في الترتيب"[17]، ولا ننسى أن السكاكي ظل" يشغل مساحة زمنية هائلة في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع، وأنه إذا كان الإمام عبد القهار أستاذا لمدرسة وإماما خط بقلمه أروع منهج جمع بين العلم والفن، والقاعدة والذوق، وأسفرت كتاباته عن نظريتي (البيان) و(المعاني)، فإن السكاكي أستاذ بحق لمدرسة، وإمام خط بقلمه "أدق منهج تفصيلي لكليات البلاغة وجزئياتها وأصولها وفروعها"[18] ، وكان تلخيصه لما جاء في كتابي عبد القاهر" أدق من تخليص الفخر الرازي – الذي سبقه – وكأنما كان عقله أكثر دقة وضبطا للمسائل.. مع ترتيب المقدمات وإحكام المقاييس وصحة البراهين".[19]

والقول بأن السكاكي أحال مسائل البيان إلى أقيسة منطقية وإلزامات يستعملها المتكلمون لإقناع المخاطبين بما يريدون إثباته أو نفيه من نظريات وآراء، وأنه أفسد ملكة البلاغة بابتعاده عن المنهج التحليلي الجمالي الذي تميز به عبد القاهر[20]، لا يمنع من الشهادة له بما سبق وبأن ما قام به يعد – بكل المقاييس – من وجهة نظره هو على الأقل، تجديدا في تناول مسائل البلاغة وأبوابها وعلومها، وأن "كلا الرجلين جاد بما عنده وبذل قصارى جهده في خدمة هذا الفن، وهذا ما ينبغي أن يكون في الاعتبار عند الحكم على الرواد، لأنهم بشر والكمال عند البشر بعيد المنال، ومهما كان الأمر فإن البلاغة مدينة للسكاكي في كثيرة من مسائلها"، وإذا جاز لنا – والكلام لا يزال المطعني- أن نضع تشبيها بين دور الرجلين وما بينهما من اتفاق وافتراق، فإن الإمام عبد القادر مهندس عبقري بنى مدينة فأحسنها وأجملها، والإمام السكاكي هو الذي وضع أسماء ميادينها وشوارعها ورقم قصورها ومنازلها فاكتمل للمدينة جمال الإنشاء وحسن التنسيق"[21] .

وكان للخطيب القزويني[22] ت839 دور أكثر تميزا في هذا المضمار، وكانت له" منزلة خاصة في البحث البلاغي بوجه عام لم يحظ به أحد ممن تقدمه ولا ممن تقدمه ولا ممن لحق هو فكان قطب الدائرة بحق،إذ كان البحث البلاغي قبله آخذا في النمو والتدرج جيلا بعد جيل، فجاء هو وقد استلهم أبرز مباحث

سابقيه وأخذ على عاتقه مهمة صوغ المباحث البلاغية في عبارات جامعة محررة، وأضاف إليها ما جادت به قريحته مع دقة النظر وصواب الفكر وسلامة المذهب وصحة الاستنتاج"[23]، واستحق بما صنعه أن يكون واحدا ممن تأثر بهم الدرس البلاغي في ثالث مراحله التجديدية الأربع.

فلقد عكف على ما خص السكاكي به جانب الدراسات البلاغية وهو القسم الثالث من كتابه (مفتاح العلوم)، وجعل منه تلخيصا أسماه (تلخيص المفتاح) اعتمد فيه – مع شيء من الروح الأدبية – أسلوب السكاكي التقريري، فعني بجمع القواعد وتقريرها في أوضح عبارة وأوجز لفظ وهذب فيه كثيرا مما أورده صاحب المفتاح فقدم في مباحثه وأخر وزاد ما تمس الحاجة إلى زيادته.. ثم عمد فيما بعد لتأليف شرح لتلخيصه هذا أسماه (الإيضاح لتخليص المفتاح)"جرى على ترتيبه.. وجاء وسطا بين إيجاز التلخيص وإسهاب عبد القاهر.. وكان بهذا، هو المفتاح الكتاب الممتاز على غيره من كتب البلاغة القديمة"[24].. والبصير بالنفاذ إلى بواطن الأمور يلحظ أن المباحث البلاغية قد وصلت على يد الخطيب القزويني – ومن خلال كتابيه (تلخيص المفتاح) و(الإيضاح) الذي جعله كالشرح له – إلى ذروة النضج والاكتمال .

ونحن لو وسعنا دائرة الإبداع والتجديد في معارفنا وعلومنا، وأخذنا بما يقضي به كلام صاحب (كشف الظنون) من أن" التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها: وهي إما شيء لم يسبق إليه فيبتكره، وإما شيء ناقص فيتمه، وإما شيء مغلق فيشرحه، وإما شيء طويل فيختصره، وإما شيء مفرق فيجمعه، وإما شيء مختلط فيرتبه، وإما شيء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه"[25]، فلربما هان علينا الخطب ولاستطعنا في سهولة ويسر أن نستوعب ملامح التجديد التي بدت واضحة المعالم فيما فعله السكاكي حين لمح ما أشار إليه عبد القاهر من فروق بين مباحث علم البلاغة، فميز السكاكي بعضها عن بعض وجعل كل ملامح مبحث منها علما مستقلا، وأدرج تحت كل ما يخصه من المسائل ويتواءم معه.. وأن نستوعب ملامح التجديد – أيضا ومن باب أولى- فيما جادت به قريحة الخطيب القزويني من بعده حين هذب كثيرا من بلاغة (المفتاح) وكان صنيعه هذا موضع إعجاب من جاءوا بعده من المتأخرين.. بل ولاستطعنا أن ندرك ذلك بوضوح فيما صنعه أصحاب الشروح والحواشي، بل ولعددنا ما فعلوه رابع هذه المراحل التجديدية.. ذلك أن من جاءوا بعد الخطيب فيما سمي بـ(عصر الشروح والحواشي)،" اتخذوا من مباحثه

في البلاغة نقطة بدء انطلقوا منها إلى غايات بعيدة وآفاق رحبة، مهتدين أينما ساروا بما كتبه ملخصا أو موضحا"[26]، ويستشعر هذا من عرك شروحهم وصبر وصابر على قراءة وسبر ما أحدثوه وأضافوه وأثروا بها الدرس البلاغي، ولنأخذ كتاب السعد التفتازاني[27] ت893 (المطول على تلخيص الخطيب لمفتاح السكاكي) نموذجا لذلك على سبيل المثال.

وما سبق يجعلنا نعتقد أن ما يتكئ عليه المتهجمون على تراث الأمة البلاغي من أن البلاغة في عهد أصحاب الشروح والحواشي قد توقفت عن النمو والتطور وعن تقديم الجديد – وإن كان لهم فيه حق- إلا أن الذي يجب ألا يغيب عن الأذهان هو أن اللاحقين قد رأوا في (تخليص الخطيب للمفتاح) و(مختصر السعد على التخليص) خير ما يجمع تلك القواعد، وأنهم حين قصروا جودهم على ما قصروه عليه – من وضع التعليقات والحواشي والتقريرات – لم تخل كتاباتهم من إضافات مفيدة وجديرة بالاعتبار وشهد بها ولها الحداثيون أنفسهم[28]، كما أنهم – وهم المعنيون بالتنظير– لم يغلقوا باب الإبداع أمام غيرهم شريطة أن تنضبط قواعد هذه العلوم، وهم المعنيون بالتنظير – لم يغلقوا باب الإبداع أمام غيرهم شريطة أن تنضبط قواعد هذه العلوم وهي لم ولن تنضبط إلا إذا وضعت أولا – شأن سائر العلوم التطبيقية – في قالب من القواعد المبتناة على الاستقصاء والحصر والاستيعاب لمسائل كل علم من علوم البلاغة على حدة.. وأنه مهما يكن من أمر المؤاخذات التي أخذت على شروحهم وحواشيهم، فإن قدر وقيمة الجهود التي بذلها أصحاب تلك الأصوات المزعجة التي تسمع لها جعجعة – في المناداة بالتجديد في ميدان الدراسات البلاغية والدعوة إلى التحضير ونبذ الجمود والتخلف في تناولها – ولا ترى لها طحينا، لا تساوي تفلة في بحر ولا قطر في محيط إذا ما قيست بجهود هؤلاء الذين يلوك الحداثيون سيرتهم دون حتى أن يطلعوا – لعجزهم عن استيعاب ما كتبه أولئك الأفذاذ – على جهودهم الحثيثة في خدمة البلاغة العربية، وقد رأينا بأعيننا نماذج من هؤلاء – بعد أن اتخذت جماعة الأزهر قرارا يقضي بالاستعانة في مناقشة رسائل أبنائها بأساتذة الجامعات الأخرى – يندى لها الجبين.

خــــــاتمة:

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا – على طول الخط – مع المنهج التقعيدي أو التقريري الذي أرسى السكاكي قواعده، لكن ما نروم الوصول إليه هو:

1- أن ما أضر البلاغة قديما من الاستعانة بمنطق وفلسفة اليونان والإغريق على يد السكاكي، هو عينه الذي أضر بالبلاغة على يد الحداثيين الذين لم يكتفوا بإغراق البلاغة في الفلسفة، واتباع منهج التوفيق بين ما نحن عليه وما عليه الغرب أقران اليونانيين والإغريق، حتى مسخوا بلاغتنا العربية واستعاضوا عنها بما لا يمت إليها بأدنى صلة.

2- وأن شر القديم على استغلاقه، أعظم قدرا وأنفع أثرا وأبلغ شرفا من خير ألغاز الحداثة والحداثيين في أيامنا، مما نراه ونبصره وينسحب عليه قول الله تعالى: (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه .. البقرة/ 268)، ولأن نعود إلى بلاغة السكاكي بله الخطيب الذي هذب وحلل ونظم، خير ألف مرة من أن نصطنع بلاغة لا تخدم دينا و لا تربي ملكة ولا ترعى لغة ولا تصنع ذوقا ولا تعلم مبتدئا.. وإلا فليقل لنا أولئك المتحاملون الثائرون على نهج تراثنا، على أي أساس يتم في زماننا تدريس البلاغة العربية بمسائلها ومباحثها وأبوابها، وبعلومها وأصولها وأسسها، أعلى الخيال والأسلوب الذي لا نعرف لها – إلى الآن – ضابطا؟ أم على المقدمات النفسية والأغراض الأدبية التي هي أقرب إلى درس علم النفس والأدب منه إلى درس البلاغة؟، وأنى لأولئك المبتدئين الذين يودون تعلم البلاغة ودرسها أن يتحقق لهم ذلك إذا لم يهتدوا- حسب ما يقتضيه الحال – إلى أسلوب تقريري يقوم أولا على إرساء قواعد هذا الفن وضبطه؟.. والملامس للواقع يحس جيدا بهذا.

3- وأن القدماء مع ما أخذ عليهم من تعقيد البلاغة وصبها في أطر جامدة وقوانين جافة، إلا أن هدفهم الأسمى – وهو الماثل بالدرجة الأولى في التعرف على سر الإعجاز في القرآن – باد من جهودهم واستشهاداتهم بل وبعض عناوين كتبهم.. أما هؤلاء فما لهم من هم إلا الذوبان فيما عليه من لا علاقة لهم البتة ببلاغتنا عن طريق التقليد تارة والتوفيق أخرى، وإلا اللهث وراء من يريد من غيرنا أو حتى من بني جلدتنا التخلي عن تراثنا وحضارتنا وعروبتنا وديننا – على ما أوضحت في مقدمة هذا البحث وعلى ما سيأتي بيانه.

4- وأن القديم من الدراسات البلاغية – على ما فيه من جهد يحسد أصحابه عليه – ليس بحائل عن الانتقاد[29]، أو من الوصول من خلال ضوابطه

وقواعده إلى درجات الترقي في الازدهار والتذوق اللذين كانت عليهما البلاغة أيامها الأولى وتحديدا في عصر شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني... ولنا تجارب ونماذج معاصرة تدعم هذا التوجه التجديدي المفضي إلى الربط في التناول بين القديم والمعاصر.. وما أحدثته مؤلفات أ.د/ محمد أبي موسى من نحو (خصائص التراكيب) و(ودلالات التركيب) و(التصوير البياني) وصلاحيتها – فيما أحسب– لأن تكون مادة تدريس لمرحلة ما من مراحل التعليم، والدكتور بسيوني فيود من نحو (علم المعاني) و(علم البيان) و(على البديع) وصلاحيتها – فيما أحسب– لأن تكون مادة تدريس لمرحلة الجامعة .. ما أحدثته هذه المؤلفات من صدى في الأوساط المصرية والسعودية بل وغير العربية، خير شاهد على ذلك وهو مما لا يخفى على أحد.

الهوامش

1- رواه أبو داود في سننه من طريق أبي هريرة.
2- ينظر (في النظرية السياسية من منظور إسلامي) د. سيف الدين عبد الفتاح، ص 23.
3- ينظر السابق ص 17 و (التعددية وتداول السلطـة) رسالة دكتوراه لصفوت أحمد بحقوق القاهرة 17 وما بعدهـا.
4- ينظر (المنجد في اللغة والإعلام) لويس المعلوف، ص 81.
5- ينظر (مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي) مقال لعبد الرحمن الحاج بمجلة المنار الجديد السنة السادسة يناير/ مارس 2003 ص 429.
6- ينظر (حقيقة الأصولية الإسلامية في فكر الشيخ عبد المتعال الصعيدي)، عصمت نصار، ص 179
7- وإنما حكمنا بهذا، بناء على أن ما سبق ذكره من أن ثمة اتجاها يدعو إلى تلقيح البلاغة العربية بالبلاغات الأوروبية، وأن هذا بدا واضحا في بيئات التعليم العام وكليات الآداب في جامعاتنا، كما نجد صداه فيما ألف (الشايب) في كتابه (الأسلوب) وفيما ألف (أمين الخولي) في كتابيه (فن القول) و (مناهج التجديد) قد وجد من الاعتراف به ما يؤكده وسيأتي بيان ذلك في حينه.
8- ينظر (في النظرية السياسية من منظور إسلامي) ص 56.
9- ينظر (معالم الخطاب الإسلامي الجديد)د. عبد الوهاب المسيري، ضمن كتاب (الشرعية السياسية في الإسلام مصادرها وضوابطها) إعداد وتحرير عزام التميمي، ص 176.
10- في حوار له اختير له عنوان: (الحداثة ردة فكرية تلاشت وذهب ريحها) بمجلة (الأدب الإسلامي) الصادرة عن رابطة الأدب الإسلامي العالمية عدد 28 لسنة 1421 ص 58.
11- موسوعة الجندي 63/4 وينظر 184/5.

12- هو شيخ البلاغة العربية ومجلي علومها ورافع رايتها أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي الشافعي الفقيه واضع أسس البلاغة، له من غير (الأسرار) و(الدلائل) (المغني) وهو شرح لإيضاح أبي علي الفارسي وهو في ثلاثين مجلد، و (الجمل) و(العوامل المائة) وغيرها ينظر وفيات الوفيات 278/1 ومفتاح السعادة 153/1 وآداب اللغة 44/3 والإعلام 49/4.

13- المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع 296/1.

14- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها للمراغي ص 100.

15- الطراز للعلوي 1 / 4

16- هو أبو يعقوب يوسف أبو بكر الخوارزمي السكاكي نسبة إلى ما كانت تحترفه أسرته من صنع المعادن وخاصة السكك وهي المحاريث أو سكـة التي يضرب بها الدارهم، ثم بدا له أن يتفرغ للعلم، فكان أن مضى يعب من جداول الفلسفة والمنطق وعلوم اللغة حتى بز أقرانه واشتهر بعلمه في كل مكان يراجع معجم الأدباء 59/20 .

17- مقدمة الشيخ الصعيدي في كتابه البغية على الإيضاح، ص 4.

18- المجاز بين الإجازة والمنع د. المطعني 1/ 329.

19- البلاغة تطور وتاريخ د. شوقي ضيف ص 288.

20- ينظر (تاريخ البلاغة) للمراغي ص 28 ومقدمة البغية ص 4 ومفتاح العلوم ص 236، 275 وما بعدها

21- المجاز في اللغة والقرآن بين الإجازة والمنع للمطعني 329/1.

22- هو قاضي القضاة جلال الدين محمد بن القاضي سعد الدين عبد الرحمن الشافعي الموصلي، تفقه وأتقن الأصول والعربية، ولي القضاء ببلاد الروم ثم الخطابة بجامع دمشق ثم القضاء بالشام فمصر وفيها علا صيته ثم اعيد إلى قضاء دمشق، كان ذكيا فصيحا كثير البر والإحسان ينظر شذرات الذهب 123/6 والدرر الكامنة 4 /3

23- المجاز بين الإجازة والمنع د. المطعني 347/1.

24- مقدمة البغية لعبد المتعال الصعيدي 1/ 5

25- كشف الظنون لحاجي خليفة 35/1 المقدمة

26- المجاز للمطعني 1/ 347.

27- هو الامام سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتكلم العالم بالأصول والمنطق والفلسفة واللغة، ولد بتفتازان وهي بلدة بخراسان، اشتهر ذكره وطار صيته في الآفاق له من المؤلفات ما يدل على عظيم قدره ومزيد فطنته وذكائه... ينظر في ترجمته روضات الجنات ص 309 والبدر الطالع 303/2 وبغية الوعاة ص 391.

28- ينظر على سبيل المثال مناهج التجديد لأمين الخولي ص 165 وما بعدها، 183، 187، 189

29- ولقد كانت للخطيب استدراكات على السكاكي، كما كانت للسعد استدراكات على الخطيب، ولم يكن ثمة مانع يمنع من الرد والإضافة والتجديد في روح من المودة والتأدب بأدب العلم والعلماء وصولا إلى الحق والحقيقة.